

وكتب هارم بورجستال النموي كتاباً عن المتنبي يصفه بأنه الشاعر العربي الكبير وطبعة في فيينا سنة ١٨٢٤ وطبع برونينول الهولندي بعض اشعار المتنبي مع شروح من مجموعة ليدن في الجزء الاول من مجموعة Orientalia اي شتوون شرقية سنة ١٨٤٥ في مئة صفحة

ويطول بنا البحث لو اشير الى المطبوعات الكثيرة ولعل حضرة الاديب يوفي الموضوع حقته لاني اردت هنا حصر القول في المخطوطات المحفوظة بدار الكتب دون سواها

توفيق اسكاروس

في دار الكتب السلطانية

التربية والتعليم عند القدماء

(٢)

تاريخ التعليم والتربية عند العرب

سبق لنا الكلام ان العرب تناولوا هذين الشئين عن اليونان والرومان ولكن البعثة المدقق لا يكتفي بما اقتبسوه بل يتطرق الى تاريخ الشئين عندهم في جميع الادوار ولهذا تبعضاه إماماً بأطراف الموضوع

عند قدماء العرب - ان الدولة الساموية التي تبغ فيها المشترع حمورابي وترجع آتيا من الفصائل السامية العربية قد نشأت في العراق وظهر من آثارها القديمة وحادياتها المثارة عنايتها بأداب التربية والتعليم ولاسيما آثار (زياره) التي دلت على اتقاض مدرسة الامتقال وظهر فيها آجر كثير وغضار تقشت عليه دروس تلك المدرسة من لغوية وادبية وحسابية وهي مما ألقه حمورابي أحد ملوك تلك الدولة في الآداب والتاريخ والدين وتدل على تفوقهم في توسيع نطاق العلوم ولاسيما وضع المعاجم والموسومات وكتب التدريس بحسب علوم عصرهم وانشاء المسكاتب بجانب المدارس للمطالعة كانشاء المشفيات والصيدليات قرب المدارس الطبية للتمرين على الجراحة والتمريض

ومن ادق ما عرفت من تلك الآثار اعتناؤهم بهذيب المرأة ومنحها حرية

الاستقلال وإباحة الأعمال لها حتى نفاً في ذلك العهد كاتبات ومؤلفات وخدمات ومعلمات اشتغلن في خدمة الآداب والحكومة ومصالح الزراعة والتجارة والتدريس حتى الكهانة والتنجيم. وكلها آيات بينات دالّات على مبلغ رقي المرأة في الآداب والمصالح وتدير المنزل حتى في التأليف

وإذا نظرت إلى آثار دولة الرعاة المصرية العربية النجار على أحد الأقوال رأيتها بأذلة قصارى الجهد في ترقية المعارف وإنشاء المدارس. وهكذا كانت الدولة الحيرية وغيرها من دول العرب القديمة حتى أن لقمان الحكيم ترك لنا كثيراً من الوصايا التهذيبية والتعليمية وكذلك البلغاء الذين نفاوا بعده من مثل فوس بن ساعدة وأكثم الصبي والحارث بن كلدة وأشباههم فضلاً عن النساء كالتغصاء وغيرها عند خلفاء الراشدين والامويين — من طالع الأحاديث النبوية وأقوال الصحابة والعلماء رأى فيها من التواعد التهذيبية والقوانين التعليمية ما يدل على رقي الأمة في المعارف

فمن الأحاديث النبوية قوله (ص): أفضل الصدقة أن يعلم المرء علماً ثم يملأه إياه — العالم والمتعلم شريكان في الأجر ولا خير في سائر الناس — اغدُ طالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً ولا تكن الخامسة (أي جاهلاً) فهلك — من كتم علماً أبلغه الله يوم القيامة بلجام من نار — اطلبوا العلم ولو بالصين — طلب العلم فريضة على كل مسلم — من خرج في سبيل العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع — ما جمع شيئاً إلى شيء أفضل من حلم إلى حلم — أن باباً من العلم يتعلمه الرجل خير له من أن يكون أبو قبيس ذهباً فافقه في سبيل الله

ومن أقوال الصحابة قول الإمام عمر بن الخطاب (رضه): اعلوا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله بالعلم حتى تعملوا — تعلموا العلم وتعلموا للعلم العكينة والحلم وتواضعوا لمن تتعلمون منه وليتواضع لكم من يتعلم منكم ولا تكونوا من جابرة العطاء فلا يقوم عليكم بهلكم — تعلموا العلم فإن تعلمه لكم حنة . وطلبه عبادة . ومذاكرته تسبيح . والبحث عنه جهاد . وتعليمه من لا يعلّمه صدقة . وبذله لاهله قرية

وقال الإمام علي ابن أبي طالب (رضه): يا بني عاشروا الناس عشرة إن غلبتم حنوا إليكم وإن فقدتم بكوا عليكم

وقال الامام الحسن ابنه لبيبه وبني أخيه : تعلموا العلم فان لم تستطيعوا حفظه فآكتبوه وضموه في بيوتكم

وكان التعليم صناعة الاشراف ومن اشتهر به سفيان بن عيينة . والضحاك بن مزاحم . وعطلة بن ابي رباح . والسكيت الشعر . وابو الاسود الدؤلي . والحجاج بن يوسف الثقفي واخوه . وكان هذان الشقيقان يعلمان بالطائف وكان لقب الحجاج كيباً وكان الصبية المتعلمون منه يأتونه بجزر مختلف الاشكال فقال بعضهم قبيد :

أينسى كيباً زمان الهزال وتعلمية سورة الكوثر
رغيف لهُ فلكة ما ترى وآخر كالتمر الازهر

ذكر ابن عاكر : ان رومان مؤدب اولاد عبد الملك بن مروان كان الملك يقول لهُ : مرهم باحرار ما اقبل قبل ادياره . وكتبان ما في الانهر دون الخلفان . ومؤازرة الثقة من الاخذان . وتوقع انتقاض الاخوان . وقلة التجب من قدر الخلان

وقال جعفر الصادق : من داخل السفهاء حفر . ومن خالط العلماء وقّر - قلى
الحق لك او عليك واياك والنسيمة قاتها تزوع الشحنة في قلوب الرجال
وقال عمر بن العزيز : من صل بغير علم كان ما يفسد اكثر مما يملح
وقال ابن هبيرة وهو مؤدب بعضهم : لا تكونن اول مشير . واياك والرأي
القطير . وتجنب ارتجال الكلام . ولا تشر على منبت . ولا على وغد . ولا على
متلون . ولا على طوج . وخف الله في موافقة هوى المستشير . فان التماس
موافقتهم ثوم وسوء الاستماع منه خيانة

ومن عنابة النساء بالعلم في ذلك العهد أن السيدة فاطمة الزهراء ابنة النبي
وزوجة الامام علي كانت من طبقة اعز الرجال بين قومها ولها مواقف وخلف
مشهورة . من حفائدها سكينه ابنة الحسين بن فاطمة فكانت دارها نادياً للعلماء
فتسارمهم وتجزمهم وقد انتقدت الفزدق وجريراً وأنتت على كثير وجيل
وام البنين زوجة الوليد بن عبد الملك شاركت زوجها بالسياسة والآداب
ولها مع الحجاج بن يوسف مساجلات . وكذلك رابعة المدوية اشتهرت بشعر
بيوت العلم ومجالسها الادبية والشعرية

ومن اقرب ما يروى من هذا القبيل ان ابا ريعة الراي خرج في البعوث الى خراسان وكانت امرأة حاملاً فولدت ربيعة فلما طاد بعد سبع وعشرين سنة وجد ولده من العلماء وامة قد اتفقت ماله كلة على تلميذه

عند الخلفاء الصاسيين فا امدم - لقد اعتنت هذه الدولة بالتعليم واسست المدارس والفت الكتب الاخلاقية والادبية وكلها ناصحة في التربية والتعليم واشهر كثير بتأديب اولاد الخلفاء والامراء فكان الكافي امام الكوفيين مدرس المأمون والامين ولدي الرشيد . وايو محمد البيهقي مختصاً بتعليم المأمون . وايو عبد الله البيهقي النحوي مدرس اولاد المعتضد بالله . والحافظ ابو بكر ابن ابي الدنيا مؤدب المعتضد وعلي ابنه الملقب بالمكتفي بالله وكان له عليه كل يوم خمسة عشر ديناراً . وبينما كان يقرئ كتاب (الفصح) أخطأ قمرص خذته قرصة شديدة والنصرف فلحقه رشيق الخادم فقال له يقال لك : « ليس من التأديب اصحاب المكروه » فتأثر ولما جاء بيت الامير قال له : تقول غني ما لم اقل . قال نعم يا مؤدبي : من فعل ما لم يجب قيل عنه ما لم يكن . وكتب الى تلميذه المعتضد وابنه المكتفي :

ان حق التأديب حق الابوة عند اهل الحجى واهل المروءة
واحق الانام ان يعرفوا ذا ك وبروءه اهل بيت النبوة

وكان الملوك يتواضعون للعلماء حتى ان الرشيد مع اشتهار المشهورة كان يصب الماء على يد معاوية المحدث الضرير اجلالاً لعلوه . فقال له معاوية كنة الشهيرة : « والله ان تواضعك في شرفك لا شرف من شرفك »

واشتهر كثير من المدرسين بهذا المعصر مثل سيويه والتخليل بن احمد وعبد الحميد المتروسل وابي عبيد الله بن سلام . ولقب كثير منهم بالقاب التربية والتعليم مثل ابن الدهان الموصل المتعوت بالمهذب وفتيان الشاغوري بالمعلم والواسطي بابن المعلم وابن العميد بالاستاذ

وعرفوا ضرر العلم الناقص حتى قال الامام القرظالي : الجهل خير من العلم الا بقر . ومن بليغ ذلك قول ابن التلميذ الطيب الشير :

المعلم للرجل اللبيب زيادة وتبصيرة للاخلاق الطياش
مثل النهار يزيد ابصار الوري نوراً ويعمي اعين الخفاش

وصرحوا بالحاجة الى العلم فقال ابو حنيفة : من ظن انه يستفي عن العلم فليكن على نفسه

واعتنوا بالتربية والتعليم حتى ان هارون الرشيد دخل يوماً على ولده المأمون وهو صغير ينظر في كتاب فقال له ما هذا ؟ فقال : كتاب يشهد الفكرة ويحسن العشرة . فقال الرشيد : الحمد لله الذي رزقني من يرى بعين قلبه اكثر مما يرى بعين جسمه

واعتمدوا على التربية النفسية فان ابن المقفع الشهير سئل مرة عن اذنه . فقال : نفسي . كنت اذا رأيتُ حياءً ايتتُ وان رأيتُ قبيحاً ايتتُ

وكلف العلماء بالعمل حتى قال ابراهيم بن ادم : اطلبوا العلم للعمل فان اكثر الناس قد قتلوا حتى صار عليهم كالجبال وصلهم كالدر . وقال الامام الاوزاعي : من عمل بما علم و قى لما لا يعلم . وقال رجل للمهلب بن ابي صفرة : سم ادركت ما ادركت . فقال المهلب : انما ادركت ما ادركت بالعلم . قال الرجل . ولكن غيرك قد علم اكثر مما علمت ولم يدرك ما ادركت . فقال المهلب : ذلك علم اعمل وهذا علم استعمل

وكان مبدأ العرب في التعليم منياً على قول احد الحكماء لابن : خذ العلم من افواه الرجال فانهم يكتبون احسن ما يسمعون ويحفظون احسن ما يكتبون ويقرءون احسن ما يحفظون . وقيل عندهم : الكلام الحلي "حي" . ولهذا رحلوا في طلب العلم وسماعه من افواه العلماء ولم يأتوا من تجشم المشاق لتحصيله حتى قصدوا المشرق من المغرب وبالعكس وقرأوا العلوم في المساجد والمدارس والقرا الكتب في آداب المناعة

ولما كان فلاسفة اليونان قد رحلوا في طلب العلم كما فعل ارسطو في تروك اينة بعد موت افلاطون استاذهم فيها طلباً للعلم خارجاً محمد بن العرب

فان ايا سميد عبد الكريم السمعاني السجستاني سافر في القرن السادس للهجرة في طلب سماع الحديث الى ما وراء النهر وسمع منه ما لم يسمعه غيره وجمع شيخته فراد عدد شيوخه على اربعة آلاف شيخ

والحافظ ابن عساكر المؤرخ بلغ عدد شيوخه اكثر من الف وثلاث مائة شيخ من العلماء وعلماء امرأة من العالمات

وعب الدين بن النجار البغدادي المؤرخ اشتملت مشيخته على ثلاثة آلاف شيخ وبقي سبعة وعشرين سنة راحلاً يطلب العلم في الشام ومصر والحجاز واسبهان وخراسان ونرو وهراة ونيسابور وغيرها

والقاسم بن احمد البرزالي الاشيلي ثم الدمشقي بلغ عدد مشايخه بالسماع اكثر من الالفين وبالإجازة اكثر من الف وله مشيخة مرتبة على تراجمهم

وابراهيم بن محمد السوسي من شعراء الخلاصة كان له شيوخ لا يحصون جمع منهم من اسمه محمد فقط فبلغوا نحو السبعين وذلك في القرن الحادي عشر للهجرة ومن اغرب ما قرأت ان الخطيب التبريزي شارح الحاشية عشر على نسخة من

(التهذيب) للازهري في اللغة وهي في عدة مجلدات فاراد تحقيق ما فيها على عالم كبير فدل على ابي العلاء المرعي الاعمى . فوضع الكتاب في خلافة وحملها على

كتفه من تبريز في المعجم الى المعرة قرب حلب في سورية لانه لم يكن له ما يستأجر به ركوبة فنغذ العرق من ظهره الى الكتاب فآثر فيه البلل . قال ابن

خلكان : وكانت تلك النسخة في بعض الوقوف ببغداد فاذا رآها من لا يعرف القصة ظنها غريبة . وكان ذلك في القرن الخامس للهجرة

ولقد ادركوا تقسيم منافع العلوم وتأثيرها في المدارك فقال الامام الشافعي : « من تعلم القرآن عظمت قيمته . ومن نظر في الفقه نبل مقداره . ومن تعلم اللغة

رقى طبعة . ومن تعلم الحساب جزل رأيه . ومن كتب الحديث قويت حجته . ومن لم يصب ثمة لم ينعمه علمه »

وكان اقرار الاساتذة امام تلاميذهم بالحق ولو كان عليهم بدل على صفات سامية في المدرسين من ذلك ان القاضي جابر بن هبة افه قال : قرأت المتنامات على

الحريري فلما وصلت الى قوله :

يا اهل ذا المغنى وقيم شرًا لا لقيم ما بقيت ضرًا

قد دفع الليل الذي اكفهرًا الى ذراكم (شعثاً مغبرًا)

قرأت (صفاً ممتراً) وكنت اظن ذلك ففكر الحريري ثم قال : لقد اجدت في التصحيح وانه لا جود . قرب (شعث مغبر) غير محتاج . و (الشعب المعتر) موضع الحاجة . ولولا اني قد كتبت خطي الى هذا اليوم على سبع مائة نسخة

قرئت علي لغيرته كما قلت

وقرأ الأصمعي على عمرو بن العلاء قول الخطيب:

وغررتي وزعت اذك م لابن في الصيف تاسر
غرقة هكذا:

وغررتي وزعت اذك م لاتي في الصيف تأمر
فقال له ابن العلاء: انت في تصحيفك اشعر من الخطيب

كان من اسباب تعلمهم احيانا التنصير الذي يظهر في مناقشاتهم ومساجلاتهم
ومجالس مذاكراتهم فمن رأى من تصحى ضعفاً خجل من جهله واقتن العلم فان
الجواليقي تعلم التلك لانه سئل مرة من معنى قول الشاعر:

وصل الحبيب جنان الخلد اسكنه وهجره النار يصليني بو النارا
فالشمس بالقوس امست وهي نازلة ان لم يزرنى وبالجزوا ان زارا

فلم يجر جواباً وخجل من تصحى ودرس علم التلك حتى عرف ان مراده ان لم
يزرنى كان الليل هندي في غاية الطول كما تكون الشمس في برج القوس في آخر
الخريف . وان زارني كان في غاية القصر كما تكون في برج الجوزاء آخر الربيع
وكم من عالم اتقن اللغة والآداب لما ظهر في بعض اقواله او كتاباته من الخطأ
مما لا حاجة الى تسميته الآن

وكانوا يمتحنون الطلبة بتدقيق قبل ادخالهم في حلقة التدريس ومن ادلة ذلك
ان ابراهيم النخاس البصري الشهير من اهل القرن الثالث للهجرة جاء به ابوه وهو
صغير الى الخليل بن احمد الفراهيدي ليطلبه . فقال له الخليل يمتحنه وفي يده قدح
زجاجي : يا بني صف لي هذه الزجاجية . فقال : بمدح ام بدم . قال : بمدح . قال :
« تريك القذى ولا تقبل الاذى ولا تتر ما وراءها » . قال : فدمها . قال :
« يسرع اليها الكسر ولا تقبل الجبر » . قال : فصف لي هذه النخلة واوماً الى
نخلة في داره . فقال : بمدح ام بدم . قال : بمدح . قال : « هي حلوجناها باسق
منهاها ناضر اعلاها » . قال : فدمها . قال : « صعبة المرتق . بعيدة المجتنى .
مخوفة بالاذى » . فقال الخليل : يا بني نحن الى التعلم اخروج منك . وفي امثال
هذه الحكاية تواضع المعلم والعناية بالانشاء ايضا